المسلمون بين الشرق والغرب

عند ظهور الاسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

لقد حل الإسلام عند ظهوره ما كان بين الشرق والغرب من حروب أكرم حل ، فلم يرض أن يكون ذيلا لكتلة من الكتلتين المتخاصمتين عند ظهوره ، بل وقف منهما موقفا كريما ، ودعا كلا منهما إلى ألفة جامعة ، وسلام شامل ، ليحل الوئام محل الخصام ، وتهنأ البشرية بعهد صفاء وسلام ، وما كان له أن ينضم إلى إحدى الكتلتين ، لأن كلا منهما كان آثما فى حربه ، لأنه لم يكن يبغى به خيرا لبنى الإنسان ، وإنما كان يبغى به التحكم والسيادة على العالم ، فلم يكن الفرس يبغون من حربهم إلا أن يسود الشعب الفارسى على غيره من الشعوب ، ولم يكن الروم يبغون إلا أن يسودوا أيضا على غيرهم ، ولم تكن هذه الغاية فى شئ مما يدعو إليه الإسلام ، لأنه أتى لخير الإنسانية عامة ، ولم يكن يسعى فى بسط سيادة العرب الذين ظهر أولا بينهم ، وكان لهم فضل السبق إلى الإيمان به ، وشرف الجهاد فى سبيله

وها هو ذا التاريخ يعيد الآن نفسه ، وتقوم فيه كتلتان تتنافسان فى السيادة على العالم : كتلة شعوب أوربا الشرقية بزعامة روسيا ، وكتلة أوربا الغربية بزعامة أمريكا وإنجلترا

وقد كانت ألمانيا قبل هذا تنازع إنجلترا وفرنسا سيادتهما على العالم ، وكانت روسيا على عهد قياصرتها تحالف إنجلترا وفرنسا على ألمانيا ، وقد قامت فى هذا حربان عالميتان كانت ألمانيا تظاهر فيهما على هذه الكتلة المتجمعة عليها ، وكانت أمريكا حين ترى إنجلترا توشك أن تنهار تتعصب لها بحكم ما تفاقمها فى الجنسية ؛ فتحارب ألمانيا بجانبها ، وتنصرها عليها بما تملك من مال ورجال

فلما ذهبت ألمانيا من الطريق انتقل الخلاف على السيادة على العالم بين الكتلتين السابقتين ، وإذ كان خلافا على هذه السيادة فهو خلاف لا يراد منه خير الإنسانية فى مجموعها ، وإنما تنظر الكتلة التى تزعمها روسيا فترى أن أمريكا وإنجلترا وفرنسا قد بسطت سيادتها على العالم ، واستولت على كل شئ فيه بسلطانها ورؤوس أموالها ، فأخذت تعمل على زعزعة ذلك السلطان القوى ، ليحل سلطانها محله ، ويكون لها السيادة على العالم بدل أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، ولما نظرت الكتلة التى تتزعمها أمريكا وإنجلترا إلى ما تحاوله روسيا ، قابلتها عداء بعداء ، وصارت كل منهما تستعد لحرب الأخرى ، وتحاول جر العالم إلى حرب لا يعلم عاقبتها إلا الله تعالى

وكما يعيد التاريخ نفسه مع تينك الكتلتين يعيده أيضا مع المسلمين ، فإنهم يقفون الآن فيما وقع فيه العرب بين كتلتى الفرس والروم ، تتنازعهم كل من تينك الكتلتين المتنازعتين ، وتحاول استخدامهم فى تلك الحروب التى لا نافة لهم فيها ولا جمل ، ولا يعود عليهم منها فائدة من الفوائد ، وقد وقف المسلمون فى الحربين العالميتين السابقتين موقف العرب بين كتلتى الفرس الروم ، فحارب فريق منهم بجانب إنجلترا وحلفائها ، وحارب فريق منهم بجانب ألمانيا وحلفائها ، ولم يكن لهم مصلحة فى تينك الحربين ، بل كانوا فيها ذيولا لغيرهم ، فلم يستفيدوا منهما شيئا لأنفسهم ، بل صارت حالتهم بعدها إلى أسوأ مما كانوا عليه قبلها

ولم يجن عليهم هذا إلا تفرقهم واختلاف كلمتهم ، وإلا انقسامهم إلى فريقين يقف كل منهما موقف التابع الذى لا رأى له فى الكتلة التى انضم إليها ، فكانوا يساقون فى كل من تينك الحربين سوق الأنعام ، وكانت الحرب تأكل ما تأكل من أنفسهم وأموالهم ؛ فإذا جاء وقت الصلح لم يدع أحد منهم ليجلس مع المصطلحين جنبا لجنب ، كما كان يقف بينهم فى الحرب جنبا لجنب ، بل يتم الصلح على حسابهم ، ويتفق المتحاربان على تقسيم بلادهم بينهم ، ومن هان على نفسه هان على غيره ، كما قال بعض الشعراء :

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها
وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فيجب أن ينظر المسلمون الآن إلى موقف الإسلام عند ظهوره بين كتلتي الفرس والروم، فيقفوا موقفا كريما بين كتلتي أوربا الغربية والشرقية، ويعيدوا موقفه النزيه بين الدولة الفارسية والدولة الرومية، ويعملوا على تجنيب العالم ويلات الحروب بعد تعاقبها بكل ما في وسعهم، فيكون موقفهم بين الكتلتين موقف الداعي إلى السلام، والوسيط الذي يسعى في خير الفريقين، لينهي ما بينهما من نزاع بالوسائل السلمية، ويجمع كلمتهما على ما فيه الخير للانسانية، فإن أمكنه ذلك رفع من شأن نفسه بين الفريقين، وكسب لبلاده مالا يكسبه بوقوفه ذيلا لها، وبانضمامه إلى فريق يؤيد إحدى الكتلتين فيما تريده لنفسها، وفريق يؤيد الكتلة الثانية فيما تريده أيضا، وينسى كل منهما في هذا مصلحة نفسه، ولا ما يجره هذا الوقف المزري من هوانه على غيره

لقد جنى المسلمون من تفرقهم في عصرنا على أنفسهم جنايات لا حصر لها، وقد استفاد كل خصم لهم من تفرقهم مالم يكن ليستفيده لو استعانوا عليه باتحادهم، وكان آخر ما جنوه بتفرقهم وأقساه ما حصل لهم في حرب فلسطين، فقد مكن تفرقهم الفئة قليلة من اليهود أن تنتصر وقد كان النصر منهم قاب قوسين أو أدنى، فانقلب النصر إلى هزيمة وصارت فلسطين لليهود دون من اختلف عليها من فريقي المسلمين، ولو أنها كانت لواحد منهم لكان هذا أكرم للاسلام، وأنفع للمسلمين، ولكن أين من ينظر إلى هذا منهم وما سيترتب على هذه الشوكة التي وضعت في جنبهم، ولا يدري إلا الله عواقبها على دولهم

وأين هم من معاوية بن أبي سفيان، وقد طمع فيه قيصر الروم، وأراد أن يستغل فرصة الحرب التي وقعت بينه وبين علي ابن أبي طالب، فأرسل إليه يطلب منه أن يدفع جزية له، فلم يكن من معاوية إلا أن أرسل إليه أن يكف عنه، وإلا اتفق هو وابن عمه عليه، واجتمعا على حربه، فكف قيصر عنه، وكان لهذا الجواب الحازم أثره في نفسه

فقد رأى معاوية في هذا أن عليا أقرب إليه من قيصر، فإذا طمع قيصر فيه كان عليا على ما بينهما من العداوة أولى بأن يسلم الأمر إليه، وأحق من قيصر بأن يدخل في حكمه، لأن قيصر أجنبي: وعلي ابن عمه، ومن قريش قومه

ولكن معاوية كان معاوية، ومن لنا اليوم بمثله في عقله وحصافته؟ ولقد وضع الأمر في نصابه حين وازن بين علي وقيصر، فأبى به على حقيقته، ولم يتمسح فيه بما نتمسح به الآن من نزعة دينية، مع أنه كان أقرب إلى الدين منا، ولكنه رأى أن الأمر بينه وبين علي لا يعدو أن يكون نزاعاً على الحكم، ولا علاقة له بأمر الدين

أما نحن فنتخبط اليوم في أمورنا خبط عشواء، فتحاربنا إنجلترا وفرنسا وغيرهما من أمم أوربا حرباً عنصرية لا دينية، يراد منها فرض سيادة الغرب على الشرق، ويجتمع أبناء الشرق من مسلمين ومسيحيين على مقابلة هذه الحرب العنصرية بمثلها، فيأبى بعضنا إلا أن يجعلها حرباً صليبية، ولا يبالي بما يحدث هذا في نفوس من يشاركنا في هذه الحرب من إخواننا المسيحيين، وهم الذين فهموها على حقيقتها، لأن أوربا طلقت المسيحية من يوم أن نهضت نهضتها، ففصلت بين السياسة والدين، وتوجهت إلى الشرق تستعمره أهله على اختلاف مللهم استعماراً سياسيا اقتصاديا، لا يهمها فيه مسيحية ولا غيرها من الديانات

ومن مصلحة المسلمين أن تفهم حرب أوربا لنا على هذه الحقيقة، حتى يتفق على مقاومتها أهل الشرق من مسلمين ومسيحيين وغيرهم، ولا نفتح باباً لأوربا تفرق فيه بيننا تفريقاً دينياً، وتحاول ضم المسيحيين منا إليها، لأن حربها لنا حرب صليبية، وبهذا تكيد لأنفسنا مالا تكيده أوربا لنا

فليكن المسلمين الآن قدوة في سلفهم حين وقعوا في مثل مشاكلهم، فوقفوا فيها كراماً، وكان لموقفهم الكريم أثره في نجاحهم.

عبد المتعال الصعيدي